# ناهد

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

« أوه . . . » — ووضعت يدها على صدرها الناهد ، بينما كانت يدها الأخرى على الباب !

« هل خوفتك ؟ . . . إني آسف . . . المرة الآتية أضع على وجهي ستارا . . . هكذا . . . »

وغطى وجهه بكفه ، وجعل ينظر اليها من بين أصابعه وهي تضحك

ووسعها أن تتكلم فقالت : « ألست حضرتك الأستاذ السمير ؟ »

فقال وهو يتكلف الجد : « كنت قبل اليوم فخورا بأن أدعى الأستاذ وأن يكون اسمي السمير . . هو اسم لا بأس به . . ويجب أن أعترف بأن أبي أحسن الاختيار وأولاني فوق ما أستحق حين سماني السمير . . . ولكني سأظل بعد اليوم أذكر فزعك حين رأيتني . . . أم ترى هو وجهي الذي خفت منه ؟ »

فابتسمت « ناهد » وقالت : « لا يا أستاذ . . معذرة . . كل ما في الأمر أنك كنت أستاذي في المدرسة الـ . . . »

ففرك الأستاذ كفيه وقال : « آه هذا أحسن . . الآن فهمت لماذا أفزعتك رؤيتي . . معقول . . المعلمون شيء مخيف . . دأبهم أن يأمروا وينهوا . . يأمرون بالشيء كانوا ينهون عنه أو ينهون عما أمروا به . . . شيء يطير العقل . . . على كل حال الذنب المهنة لا لي . . والآن وقد اطمأن قلبي فهل هذه الشقة مسكنكم ؟ »

فسرها أنه يكلمها كلام رجل لفتاة ، لا كلام معلم لتلميذة ، وصار كل ما يقول يغريها بالضحك وقالت وهي تغالب الضحك الذي لاداعي له :

« نعم . . لنا فيها سنوات . . وحضرتك ؟ »

فقال واعتدل في وقفته وزوى ما بين عينيه :

« حضرتي الساكن الجديد في هذه الشقة المجاورة لحسن الحظ — لشقتكم . . شاءت المقادير أن نكون جيرانا ، فاذا كان هذا لا يغريكم بالهرب أفلا ترين أنه يحسن أن نسقط « حضرتك وحضرتي » من حديثنا ، وأن نتكلم كما ينبغي أن يتكلم الجيران بلا تكلف ولا مجاملات »

فقالت وهي فرحة مسرورة : « بالطبع . . ولكن يا أستاذ كيف يمكن ؟ »

فقال : « آه رجعنا . . كلما رتقنا الفتق من ناحية انهار من ناحية أخرى . . أستاذ . . وحضرتك . . . يظهر أني اتخذت مسكني في مدرسة داخلية . . »

فضحكت وارتج ثدياها الناهدان وقالت : « ولكن كيف أقول حين أخاطبك . . . لست أحب التكلف ، غير أني مع ذلك لا أرى كيف أقول . . . »

قال : « قولي ما تريدين بغير أستاذ وحضرتك . على كل حال . . ألا ترين من واجبك أن تعرفيني

بهذه الفتاة الجميلة التى كانت تلميذتى ؟ »

فقالت بإيجاز وقد اتقد وجهها حتى صار كالجمرة « ناهد »

ففرك ذقنه بيده وقال كأنما يحدث نفسه وعينه إلى الأرض : « ناهد ... ناهد .. اسم حلو .. ليته كان اسمى » (ضحك منها) ، ولكنه لا يحرك فى هذا الغربال الذى جعله الله لى بديلا من الذاكرة أى اختلاج .. آسف جدا .. لا حق لى أبدا .. ولكنى أعدك ألا أنساه بعد اليوم .. وكيف يمكن أن ينسى اسمك الحلو من رآك ؟ »

فأخجلها هذا الثناء المزدوج عليها وعلى اسمها ، وحمدت له فى سرها أن قصر المدح الصريح على اسمها

***

ولم يصدق الأستاذ السمير حين قال لها : إنه لا يذكرها ولا يذكر اسمها فقد كان معلمها ثلاث سنوات كاملة ولم تغب عنه إلا عاماً واحداً . وكانت أحب تلميذاته إليه وأجرأهن عليه ، وكان يسره منها أنها لم تكن تحجم عن مناقشته إذا بدا لها رأى فيما يقول ، وكان هو يؤثر أن يشجع تلميذاته على السؤال والبحث والغوص وعدم الاكتفاء بما يسمعن منه كأنما كان أستاذاً فى جامعة لا فى مدرسة ثانوية ، وأعداهن بالجرأة وألِفن معه الحرية فى فى البحث فكن يحففن به فى حيثما يجدنه — فى فناء المدرسة أو على السلم أو فى الفصل — ويمطرنه أسئلة فى كل موضوع ولو كان لا صلة له بالتاريخ الذى يدرسه لهن . وكان هذا لا يسوءه أو يثقل عليه ، فقد أتم تعليمه فى انجلترا فلما عاد ثقلت عليه وطأة الفصل بين الجنسين ، فلما نقل إلى هذه المدرسة كان يأنس بحديث الفتيات ويرى فى ذلك بعض العوض عما يفوته خارج المدرسة . وكن هن يفرحن به لفرط ما يعانين من العزلة فى هذه المدرسة « الداخلية » والاستيحاش والحرمان ، فما كن يرين من الرجال سوى بعض الخدم واثنين أو ثلاثة من الشيوخ المتحجرين ، وهذا الشاب الظريف الساخر الذى يصدمهن ويروعهن بآرائه الجديدة فى الحياة وفى كل شىء ، والذى لا يفرض مع ذلك عليهن رأياً ، بل يدعوهن إلى التفكير الحر المستقل فى كل أمر وكل حالة من حالات النفس والاجتماع ، ويهش لهن ويمزح معهن ويضحكهن من أنفسهن ، ويسخر من كل مانشأن عليه من العادات والتقاليد ، ويشعرهن أنهن إخوة له لا تلميذات ينهرن ويزجرن ويعاقبن كما يفعل الأساتذة الآخرون يفعلون ، بل كما يفعل المعلمات أيضاً ، بل الناظرة الانجليزية التى تكاد تعدهن من طبقة دون طبقة الانسان . وكانت « ناهد » فتاة كاسمها ناهداً ، ورثت عن أمها رقة الحس ودقة الشعور وعن أبيها — وكان لواء فى الجيش — الصراحة والجرأة وحسن التقدير للواجب والادراك لمزية النظام . وكانت لها زميلة فى المدرسة تحبها حباً يقرب من العبادة وكانت هذه الزميلة — سعاد — ضامرة ضاوية ولكنها غنية مرفهة تجىء معها من البيت كلما عادت منه بألوان شتى من « المهربات » — حتى السجاير كانت تدسها فى خزانتها ، فاذا أمنت عين الرقيبة أشعلت واحدة واضطجعت على الوسادة وراحت تدخن والبنات ينظرن إليها مبتسمات حاسدات ، ولكنهن كن يحببنها فكن لا يقلن شيئاً ، ويحرصن على ستر هذه المخالفة عليها . وكانت كريمة سخية بكل ما معها إلا السجاير فكانت لا تجود

على بنت بأكثر من « نفس » ولـكنها كانت تلح على ناهد أن تدخن وتعرض عليها السجاير كلما فتهز ناهد رأسها وتشيح عنها بوجهها نافرة — من التدخين ومن المخالفة — وكانت سعاد ربما جمح بها حبها لناهد فتطوقها بذراعيها وتضمها وتقبلها وتدعوها أن تفعل مثل ذلك فيضيق صدر ناهد بهذا الحب ، وتتفلت من عناقها متأففة متبرمة وتصيح بها : بس . فتكف سعاد وتروح تستعطفها وتسترضيها وتحاول أن تتألفها من نفرتها وترقد إلى جانبها على سريرها كالقطة أو الـكلب وترجو منها أن تدعها ترقد على سريرها لتنعم بقربها فتنهرها ناهد — وإن لم تكن بها قسوة — ولا تزال بها حتى تقصيها عن سريرها فتقوم المسكينة آسفة محزونة مطأطأة الرأس ، فيرق لها قلب ناهد وتردها إليها وتقبلها وتقول لها : « الآن اذهبي الى سريرك راضية » فيشرق وجه سعاد ويلتمع فيه نور البشر وتجرى إلى سريرها قريرة العين

وكانت ناهد تحس حين تلق الأستاذ السمير وتتاح لها فرصة الحديث معه أن هـذا خير عوض عما تعانى من حب سعاد لها — هذا على الأقل رجل ولم تـكن تدرك شيئاً من المعانى الجنسية بوضوح ولـكنها لم تـكن تحتاج إلى أكثر من فطنة الغريزة

ولم تـكن خبرتها بالحياة والناس قد زادت بعد تركها المدرسة اكتفاء بما حصلت من التعليم الثانوى فقد بقيت حياتها فى البيت — كما كانت فى المدرسة — أشبه بحياة الراهبات فى الدير سـوى أن وطأة الرهبنة فى البيت أخف ، فلما التقت بمعلمها السابق فرحت بذلك وسرها على الخصوص أنه تنامى وهو يكلمها أنها كانت تلميذته ، وكانت هى قد نسيت ذلك أيضاً ثم عادت تذكره حين رأته يتجاهل هذا ويغضى عنه ويكلمها كما يمكن أن يكلم أية فتاة ، خفق قلبها ورضيت عن نفسها وعنه

واتصلت الأسباب بين الأسرتين ، وتبودلت الزيارات وكثر لقاء الأستاذ السمير بناهد . وكانا كثيراً ما يقفان فى شرفتيهما المتجاورتين يتحدثان واستطاع بلباقة أن يزيل الـكلفة . وقد بقيت تدعوه الأستاذ ولـكن اللفظ فقد ما كان له من الدلالة القديمة . وكان هو يتعمد أن يجعل من نفسه عادة لها وأن يشعرها أنه رجل وأنها هى فتاة ، وكان إذا لقيها يحس أنها تهم بأن تمد يدها إليه لتحيته كما هى العادة فيتعمد أن يهمل ذلك ليذيقها الحرمان وإن كان طفيفاً وفى أمر لا قيمة له . وأحياناً يريح كفه الـكبيرة على كتفها ويحدق فى عينيها كأنما يغوص على سرها ، فتطرف وتغضى حياء ويضطرم محياها النضير الصبيح فيربت لها على ظهرها ويلمس ذقنها بأطراف أصابعه ، ويرفع وجهها حتى تلتقى العيون مرة أخرى ، فتبتسم وتنازعه نفسه فى أمثال هذه اللحظات أن يلثم فمها ، فيرد نفسه بجهد ويمضى عنها إلى النافذة وهو مطرق فتتبعه بعينيها ولا يسعها إلا أن تفكر فى هيئته وحالته ودلالة ما ترى منه

وقال لها مرة — وكان فى شقتها — بعد أن شرب القهوة : « اسمعى » وسبقها إلى النـافذة : « ما قولك ؟. بعد غد عيد الجلوس . »

قالت : « آه »

قال : « هذه فرصة يمكن أن نغتنمها للخروج مرة إلى الرياض »

قالت : « لست فاهمة »

قال : « لقد كنت منذ بضعة أيام فى القناطر الخيرية .. »

فسألته : « وحدك ؟ »

نخطر له أن يدعها تظن ما شاءت لأن هـذا أخلق بأن يزيدها تعلقاً به وقال : « والحق إنها جنة .. فتعالى نذهب إليها يوم عيد الجلوس ونتغدى هناك .. أسبق أنا إلى المحطة وانتظرك عند تمثـال نهضة مصر وتلحقين بى هناك .. سأعد أنا كل ما تحتاج إليه »

فقالت : « ولـكن كيف أسـتطيع ؟. ماذا أقول لهم ؟ »

قال : « إذن سأنتظرك هناك .. الساعة التاسعة تماماً .. »

فاظهرت التردد وبدت عليها الحيرة فأراد أن يستثير احترامها لنفسها فقال : « لا داعى من الخوف على نفسك من وجودك مى فى هذه الحديقة العامة »

فاغضبها أنه يتوهم أنها تخاف وثارت نفسها على هذا الظن ، وفمات ما كان ينتظر فقالت : «طيب» وانصرف مسروراً راضياً عن نفسه ، وارتدت مى من الباب بعد أن شيعته إليه ساخطة عليه تقول لنفسها ( يظن أنى أخاف منه .. بففففف .. ) وخطر لها على الرغم من سخطها وغضبها أن عينه رائقة وأن الشعر الـكثيف الذى على ظهر كفيه جميل

وقالت لأبيها صباح اليوم الموعود : « أنت ذاهب إلى التشريفات .. خذنى معك »

فقطب وقال بلهجة المستغرب : « آخذك مى ؟ إلى التشريفات ؟ .. »

فأضحكها هذا جداً ، وقالت وهى تكاد تقع عليه : « أنت ظريف يا بابا .. موت .. »

فقال : « ولـكن ماذا تمنين ؟ .. آخذك مى ؟ .. »

قالت : « إلى بيت زميلة لى من أيام المدرسة أتفرج من عندها على .. على .. على التشريفات .. بيتها أمام السراى .. »

فقال : « هل تريدين أن يضحك منى الخلق ؟. تركبين مى إلى عابدين ؟.. لا لا لا »

قالت : « لن أدخل السراى .. تضمنى أمام البيت وتذهب أنت إلى التشريفات .. لم لا ؟ »

فقال : « لا يا ستى .. اذهبى أنت وحدك .. أو انتظرى حتى أعود ثم اذهبى بالسيارة »

قالت : « يا بابا أنت مدهش .. أنتظر حتى تنتهى التشريفات ثم أذهب ؟. وماذا أرى إذن ؟. طيب اذهب انت وحدك .. أقول لك .. خذنى معك إلى العتبة الخضراء .. »

فرضى وحملها معه فى السيارة إلى العتبة الخضراء ولو ألحت لحملها إلى ميدان عابدين ؛ بل لدخل بها القصر ؛ فقد كان حبه لها — وهى وحيدته — عظيما ودلالها عليه كبيراً ، وقلما استطاع أن يرضى عن نفسه إذا هو رفض لها رغبة أو أبى عليها شيئاً ولم يفسدها هذا التدليل الشديد ؛ بل زادها حباً له وإكباراً

ولقيت السمير عند قاعدة التمثال ، وكانت معه حقيبة فحملها ومضى إلى جانبها صوب المحطة ، وجلسا فى القطار وكرّا إلى ذكريات المدرسـة فعرض ذكر إحدى البنات البارزات ، وكانت باهرة الجمال . فقالت ناهد : « إنها فظيعة ... يقال إنها تشرب الخمر ... » ، وخجلت من نفسها لأنها قالت هـذا واغتابت زميلتها ، ولـكن الاغتياب لذيذ

فقال الأستاذ السمير : « تشرب خمراً ... وما ضرر القليل من الخمر يافتاتى التقية الورعة ....؟ ليت مى شيئاً منها أشربه على الطعام »

فقالت بسذاجة : « ولـكنها تتلف أنسجة

الدماغ ... هذا ثابت علمياً ... كل كتاب فى الفسيولوجيا يقول ذلك »

فقال : « أهنئك بما قرأت من كتب الفسيولوجيا ... طبعاً قرأتها كلها ... بالعربية والانجليزية والتركية واليابانية أيضاً »

فقالت : « أوه ، إنك تعرف ماذا أعنى ، فلا تتهكم »

فقال : « بالطبع ... ولكن هل تعرفين أنت ماذا تعنين ؟ ... الحقيقة أن قليلاً من الخمر قد يفيد فتاة مثلك ... يخرجك من هذا الجد الصارم فى أمور لا قيمة لها ولا وزن ... يجملك أقرب إلى النوع الانسانى ... ألا تشتهين أن تحيى ؟... مرة واحدة ؟... لحظة واحدة ولو قصيرة ؟... حياة حافلة ؟... »

فشعرت أن إلحاحه هذا عليها بهذا الكلام يزعجها ... وأحست كما كانت خليقة أن تحس لو أنه وضع أصبعه على ضلع من ضلوع صدرها وغرزه ... وقلقت ...

وبلغا الرياض الفسيحة عند القناطر ، فاختار مكاناً ظليلا تحت شجرة لفاء وقعدا على دكة هناك متقابلين وأخرج ما فى الحقيبة استعداداً للأكل وقال لها : « رتبى هذا ... هذا عملك ... ويجب أن تصنعى شيئاً لتستحقى الطعام ... اكسبى رزقك مرة بعرق الجبين ... »

ووضع زجاجة على الدكة ، فنظرت إليها وتناولتها وقرأت ما عليها وقالت : « هذا نبيذ ... »

قال : « نعم نبيذ ... ومن خير الأنبذة ... نبيذ الرين ... يجب أن يوضع فى الثلج ... سأدعو خادم البوفيه ليجيئنا بوعاء وثلج »

وذهب ثم عاد فألفاها لا تزال تتأمل الزجاجة وسمعها تقول وهى تبتسم : « لا أتذكر أنى رأيت مثلها من قبل ... رأيت زجاجات الويسكى فان أبى كان به ... أكثر الضباط يشربون الويسكى ... ولكن النبيذ ... لا ... لم أره من قبل ... شكل الزجاجة جميل ... »

فسألها : « هل تريدين أن تقولى إنك لم تذوقيه من قبل ؟ »

قالت : « أبدا ... شربت مرة قطرة ... قطرة ليس إلا ... من البيرة ... وكم كرهت طعمها ... أما النبيذ ... لا أبداً »

فسألها وهو ينظر إليها — يحدق فى عينيها — ويبتسم : « وما قولك فى أن تذوقى هذا وتكرهى طعمه بعد ذلك ؟ »

قالت : « سآخذ قليلا إذا سمحت ... بالطبع هذا عيب ... ولكن وجودى معك هنا أيضاً ... كشرب النبيذ ... »

فسره حسن التعبير وابتسم لها ولم يقل شيئاً وكانت صادقة ، فما ذاقت من الخمر إلا قطرة كما قالت من البيرة ، وإلا قليلاً من السكونياك تحتاج اليه الفتيات أحياناً ليهون مايعانين من أوقات مملومة

وأكلت من السندويتش ثم بدأت تذوق النبيذ ومطت شفتيها فقد وجدت طعمه كطعم الخل ، وخاب أملها فيه كما خاب فى البيرة من قبل وعجبت للرجال ماذا يجدن فى هذا الشراب وأمثاله من اللذة

وقال لها : « هل لك فى كأس أخرى ؟ »

فهزت رأسها وقالت : « لا مرسى ... يظهر أن العادة هى التى تجعل مذاقه سائغاً »

فلم يلح عليها بل قال : « لا بأس .. هذا يترك بقية الزجاجة كلها لى وحدى ... مرسى »

فحمدت له أنه لم يلح وشعرت بالاطمئنان ، فقد كان الخوف يساورها على الرغم من تشجعها

وسرعان ما أحست أن معدتها حميت بفعل النبيذ ، فمدت يدها وأترعت لنفسها كأساً أخرى ولحها الأستاذ فتمدد الأعضاء وشعرت بالدفء والخفة والسرور وحات المناظر فى عينيها وأحست أنها تريد أن تجرى هنا وههنا — وهل هى إلا طفلة ؟ — وأدرك السمير ذلك فنظر اليها وقال : « لم لا ؟ قومى اجرى . . . سابقينى . . . أو أقول لك ... هذه كرة جئت بها معى ... تعالى نلعب بها . . . »

وكانت قد نهضت فانحنت عليه وهو يخرج الكرة من الحقيبة وقالت مستغربة : « كرة ؟ . . كيف خطر لك أن تجىء بها ؟ »

فقال : « من أجلك ... يا صغيرتى ... »

وأخرج شيئاً آخر ملفوفاً فى ورق وقال وهو يلوح لها به : « وجئت أيضاً بشيكولاتة ... لفتاتنا الصغيرة فان الصغيرات يحببن الحلوى »

فقالت : « أتسخر منى ؟ »

قال : « أولست صغيرة ؟ »

قالت : « صغيرة بالطبع ... ولكن ليس الى هذا الحد ... لست طفلة »

فقال : « حسن ... نرد الشوكولاتة الى مكانها وندخرها لبنت صغيرة ... »

فصاحت به : « لا لا لا » وضحكت وخطفت الشكولاتة

ولعبا بالكرة قليلا وسرها أن رجلاً طويلاً عريضاً مثله يلاعبها وكادت تقع مرة وهى تحاول أن تلقف الكرة ، فأدركها — أحاطها بذراعه فتعلقت به اتقاء للسقوط على الحشائش المبتلة وصارت على صدره ، وخيل إليها أنها تستطيع أن تبقى كذلك الى الأبد . وكرّ بها الى الدكة وأخرج السجاير وقدم اليها واحدة فحاولت أن تدخن المرة التاسعة أو العاشرة فى حياتها . والمرة التاسعة أوالعاشرة أخفقت ولم ترض عن الطعم الذى وجدته ولكنها مع ذلك كانت مسرورة — النبيذ الماسخ وهذه الدكة الخشبية الناشفة والأرض الخضراء المتوجة والأشجار الباسقة الهرمة والشمس التى تملأ الدنيا بشراً ودفئاً وأخيراً هذا الرجل

ولم تفزع بل أحست بالرضى والاغتباط حين دفع ذراعه ، فأحاط بها خصرها وأمال خدها الصابح على كتفه ، وسرها أن تلمس بخدها ثوبه الخشن الدافئ ، ولكنها استاءت لما رفع محياها إليه ليقبلها ، وحدثت نفسها أن الرجال جميعاً هكذا ، وإن كانت هذه أولى تجاربها ، ورأى هو انقباضها . فقال لها وهو يضحك : « هل تعرفين حكاية الرجل الذى سأل الطبيب هل يمكن أن يعيش — كأبيه — مائة سنة ؟ فسأله الطبيب : هل هو يدخن ، أو يشرب الخمر ، أو يحب النساء أو يحيى الليل بالسهر ، أو يهوى شيئاً من الأشياء التى يكلف الناس بها . فقال الرجل : إنه لا يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا هوى له فى شىء ، فعجب الطبيب وسأله : إذن لماذا تبغى أن تعيش مائة سنة . ماذا تصنع بها ؟ »

وأدهشها أنه طوقها فجأة وأهوى على فمها بالقبل فى غير رفق حتى لأحست أنها توشك أن تختنق ، واستغربت من نفسها أن امتعاضها حين همّ بتقبيلها أول مرة زال ، وأنها لا تسخط على الرجال ؛ بل أذهلها أنها شعرت أن شفتيها دبت فيهما الحياة وقالت بضعف : « أرجو ... »

فصاح بها : « ألا تريدين أن تكونى امرأة حقيقية ، لا مجرد فونوغراف يعيد ما حفظ فى المدرسة ؟ ... ألا تشتهين أن تحسى وتشعرى بجسمك يحترق وتضطرم فيه النار ... تندلع من أخمص القدم إلى الرأس ؟ ... هه ؟ »

فقالت : « لا أدرى ... أظن ... ولكن ... »

فصاح بها مرة أخرى : « تظنين ماذا ؟ ... خائفة ؟ ... هه ؟ »

وجذبها إليه مرة أخرى وقبلها بعنف ، فزاغ بصرها ، وخفق قلبها ، ومرت فى بدنها رعدة خفيفة — من السرور لا من الفزع أو الجزع — وخيل إليها أنها كرمال الشاطئ الجافة التى ارتفع المد إليها بالماء فرواها ، ولكنه أسرف فى التقبيل وعنف فى الضم ، فأحست بالبرد والفراغ فى بدنها ووسعها أن تصيح به كما كان يصيح : « بس ... قلت لك بس ... » ، ولم تكن قد قالت له « بس » ولكن هكذا زعمت ... نخلاها ، ولكنه ظل ينظر إليها نظرة الصبى الذى يعمر صدره اليقين بأنه ذاهب إلى الملعب ليرى الدبة الراقصة وقال : « إنك فاترة ... ليس فيك حرارة »

فساءها ذلك وقالت : « فاترة ؟ ... لقد صرنا نتكلم بصراحة ... لا لست فاترة .. وأقول لك إنى استطبت القبلة الأولى ، ولكنك أردت بعد ذلك أن ... باختصار ... زدتها ... فهل يرضيك هذا الاعتراف ؟ ... فاترة ؟ ... »

فقال وهو يتأملها : « نعم فاترة ... ليس الذى فى عروقك دم حار ، وإنما هو حبر أحمر ... كلا ، لا حرارة على الاطلاق فى هؤلاء الفتيات المتعلمات ... لقد أصبحت أؤمن بالمرأة الأمية ... إنها على الأقل لا تتكلف ولا تتفلسف ، ولا تعرف إلا ما تحس ... طبيعية ... »

فأغضبتها هذه الحملة منه عليها بلا مسوغ تعرفه ، وأسخطها أنه يستفزها ، واستصغرت منه ما يحاول من تحقيرها ، ونفرت من لهجة الشموخ والتعالى فقالت له بجرأة أدهشتها هى قبل أن تدهشه : « ألا يمكن أن يخطر لك أن فى نفسى حرارة كافية ولكنك أنت لست ذلك البطل المغرى الساحر الفاتن الذى تتوهم ؟ . يمكننى أن أقول لك إنى وأنا صغيرة أحببت ابن البقال الذى كان تحت بيتنا ... كان صبياً مثلى ولكنه كان فيه رجولة ... لم يكن عابثاً يرسل يده كالأفعى ليلمس الثدى .. لم يكن يحاول إغراء البنات الساذجات بقلب دروس التاريخ قصصاً غرامية وتصوير الدنيا كأنما كأنما ليس فيها إلا رجال ينزون ونساء تتركهن الشهوة الجامحة كالورقة المبلولة . لقد عميت لحظة عن حقيقتك ولكنى الآن أراك .. كما أنت .. فاترة ؟ مالك أنت ؟ . من فضلك اسمح لى أن أعود .. »

ونهضت ووقفت معتدلة القامة كأنها أبوها الجندى وخيل إلى الأستاذ السمير لحظة وهو ينظر إليها مبهوتاً أنه لن يستغرب إذا طر لها شارب .. وعجب لأنوثتها أين ذهبت ، ولذلك اللين الساحر فى عودها ماذا صنع الله به .. منذ دقائق كانت إلى جانبه ، وكان يحسها كالزبدة الطرية والآن .. تقف كالرمح ... بنت أبيها ... عجيب ...

وقال وهو يمد إليها يده : « إنى آسف ... ومعتذر ... وأصدقك فأقول إنى كنت أتوقع ولا أستغرب أن أسمع منك شتماً أو زجراً أو نحو ذلك ولكن هذا الكلام ... أعترف أنه آخر ما كان يمكن أن يخطر لى أن أسمعه حتى من رجل فكيف بفتاة غريرة مثلك »

فقالت ببساطة : « إنى فتاة غريرة ... هـذا صحيح ... لا تجربة لى ... لم أعرف الرجال ... ولـكنى لست ... لست حمـارة ... وثق أن كل الفتيات مثلى ... تنقصهن التجربة ولـكنهن لا ينقصهن الادراك الصحيح ... يستحيين أن يقلن ما يعرفن ... هذا كل ما هنـالك ... ولـكنى أنا تعودت ألا أستحى ... لماذا أخجل ...؟ » وهزت كتفيها ومشت أمامه

وعاد فى صمت وكانت هى تحدث نفسها وهى جالسة فى القطار تحتقر ما بدا من صغاره لها ، غير أن صوراً معينة أبت ألا أن تخايلها — منظر كفه الـكبيرة التى يكسو ظهرها الشعر .. ورأسها المـائل على كتفه الخشنة .. وشفتاه على شفتيها .. وحلاوة القبلات الأولى المباغتة ... حلاوة لا عهد بها ولا كان فى ظنها أن مثلها استفاد من الشفاه .. وودت لو تعرف من أين تجىء هذه الحلاوة . . . ولماذا تسرى الرعدة فى البدن . . أترى الشفة باب شىء ؟ باب الى ماذا ؟ هذا المجهول ماذا هو يا ترى ؟

وكان هو يحدث نفسه أنها نسخة طبق الأصل من أبيها ، وأنها جديرة أن تلبس بذلة صفراء . . . كاكى . . . وتبدو فى شكة عسكرية . . . والـكلام الذى قالته من علمها إياه . . لم يكن يعرف أن فتاة غريرة مثلها — هى غريرة على التحقيق — يمكن أن يكون هذا إدراكها وتلك لهجتها ... لو كانت فى الستين من عمرها لـكان كلامها غير مستغرب .. أما منها .. فعجيب .. أتراها تقرأ كتباً .. ولـكن أى كتب . . . لتقرأ كل ما فى الدنيا من كتب فانما العبرة بغير ذلك ... العبرة بماذا ... لا أدرى كيف أقول ، ولـكنى أظن أن الـكتب وحدها لا تكفى .. الادراك الصحيح يجىء لا من الـكتب وحدها بل منها ومن التجربة ... وأى تجربة لهذه التى لعلى أول من قبلها كما قبلتها . . ولـكن من يدرى . . . كيف أكون واثقاً بعـد الذى سمعته منها ؟ المرأة لغز محير . . أهو ذكاء فطرى .... !

وافترقا فى المحطة بلا مصافحة ، وعاد كل منهما إلى البيت من طريق ، وحلت النبوة ووقعت الجفوة ، وفتر الحال بين الأسرتين ، وانقطعت الزيارات ، وامتنع التلاق ، وصارت هى لا تخرج إلى الشرفة حتى تستوثق أن شرفته خالية ، وصار هو يرتد أو يحول وجهه إلى ناحية أخرى إذا برزت فى الشرفة أو أطلت من نافذة . وكان كلاهما مع ذلك مشغولا بصاحبـه . . هو يندم على ما كان ويحدث نفسه أنه فقد كنزاً ، وإن كان كنزا رهيباً . . كنزاً فيه أو هو فى بركان . . وهى تحلم وعينها مفتوحة بالقبلة الحلوة ، والضمة القوية ، والشعر الـكثيف على ظاهر اليد ، وتتساءل عما وراء ذلك من أسرار المتعة الخفية . . .

وجاء يوم أحست فيه أن أمها تتبعها بعينها وتجعلها أبدا عليها ، وخيل اليها أن أباها يرميها أحيانا بنظرة فاحصة ، وزاد قلقها أنهما لم يقولا لها شيئا ولم يستغربا هذا الفتور الحاصل بين أسرتهما وأسرة السمير بعـد الاختلاط الوثيق ، وأنهما لم يسألاها مرة عن شىء . وثقل هذا الشعور على نفسها وحيرها الأمر ، ولم تدر ماذا تصنع ، ونازعتها نفسها أن تصارح أباها بالأمر كله ، فقد كانت على خلاف المألوف المعهود تسكن إلى أبيها وتبثه ما فى نفسها واثقة من عطفه وفهمه ، ولا تفعل ذلك مع أمها ، ولـكنها ترددت وطال التردد ، وخطر لها مرة أخرى أن تكلم الأستاذ السمير نفسـه فى الموضوع . ولـكن ماذا تقول له ؟ . أتستجديه . .

أتطلب منه النجدة ؟ . .

وضاق صدرها عما أجن ، وقلبها عما وجد ، وكان صدرها يجن للأستاذ السمير خليطا عجيباً من الهوى والنفور والشوق والامتعاض ؛ وخيل اليها أيضاً أن قلبها يجن له الاحتقار ، ولكنها لم تستطع أن تقنع نفسها بهذا . واتفق يوما — أو ليلة على الأصح — أن دخلت على أبيها ، وكان وحده ، فقالت : « هل أضايقك إذا بقيت ؟ » فأفسح لها إلى جانبه ولم يقل شيئاً ، وقعدت وطال الصمت ، وتوهمت أن أباها ينظر اليها خلسة ، وكبر فى ظنها أن على لسانه كلاماً يرد نفسه عنه بجهد ، فلم تعد تطيق وصاحت به فجأة ووضعت يدها على صدره المريض : « أبى . . . » وانطلقت تحدثه وتروى له ما كان ، وهو مطرق يسمع ولا يقاطع ولا يقول شيئاً حتى انتهت ، فرفع اليها وجهه الشاحب وابتسم ، فانفجرت باكية ، فربت لها على ظهرها وقال بإيجاز . « لم يخب ظنى بك » فجفت دموعها بسرعة وحدقت فى وجهه وسألته :

« هل...هل ... كنت تعرف شيئاً » فقال :

« كلا ... لم أكن أعرف شيئاً ... كنت أشعر أن هناك شيئاً ... وأتوقع أن تقصيه على ... وخطر لى أن أذهب إلى الأستاذ السمير وأسأله ... لا لا لا ... لا تنزعجى ... لم أفعل شيئاً من هذا ... ارتد إلىّ عقلى ... لم تكن بى حاجة إلى الكلام معه ولا إلى سؤاله لأنه هو جاءنى أمس وسألنى هل أرضى أن أزوجه منك ... واعترف أن هذا السؤال زاد قلق ... خفت أن يكون قد حدث أمر خطير ... فقد كان يكلمنى وكأنه يشيع ميتاً ... اعتقدت أن هذا الطلب تكفير عن إساءة خفت أن يكون هذا هكذا ... لم أقل له شيئاً ... بل قلت له : إن هذا سؤال جوابه عند ناهد ... فقال : إذن لا أمل لى ...فاستغربت واطمأن قلبى .. سامحينى يا ناهد إذا كنت قد قلقت عليك ... لم أسئ بك الظن ... ولكنك صغيرة والرجال شياطين ... وقلت له هل يتصور أن من الممكن أن يتزوج فتاة متعلمة فى هذا العصر على رغم أنفها ... أو هل يريد منى أن أكون جلاداً ... نهايته هذا ما كان ... فما قولك ؟ »

فأطرقت ثم رفعت رأسها وقالت : « لا أدرى »

وهزت رأسها : « يخيل إلى أحياناً أنى أحبه ... وأحياناً أخرى أنى أحتقره ... لا لست أحتقره ولكنى لا أطيق سخريته وتعاليه ... بارد ... »

فابتسم ابتسامة العارف الفاهم المدرك وقال : « هذا التردد معناه أنك راضية ... لا تقاطعى ... انتظرى ... أنت مشغولة به ... وهل الحب إلا هذا الشغلان ؟... أنا أعرف ... أبوك يعرف ... يا ناهد صدقينى ...

فتركت الموضوع وأغراها الفضول بسؤاله : « هل أحببت فى حياتك يا بابا ؟ »

فقال : « طبعاً أحببت » ثم أسرع فقال : « أمك »

فربتت له على خده الخشن وإن كان حليقاً وقالت بلهجة من يدلل طفلا ، وأحست وهى تفعل ذلك أنها تستطيع أن تكون أماً لهذا الرجل الكبير الضخم الأبيض الشعر ، وشعرت بفيض من الحنو : « وهل أحببت غيرها .. غير أمى ؟ »

فارتبك وارتفعت يده إلى شاربيه وقال : « إيه ؟ ما هذا الكلام ؟ قومى .. قومى .. قومى .. أ .. أ .. أنا جائع »

فانفجرت ضاحكة وقالت : « هذا أصرح اعتراف سمعته أو سمعت به »

وخرجت تنساب لتعد له الطعام

ابراهيم عبد القادر المازنى